الفصل التاسع: التحليلات الدولية

- المبحث الأول: صدام الحضارات
- المبحث الثاني: نهاية التاريخ





المبحث الأول: صدام الحضارات

اشتهرت فكرة صدام الحضارات في بداية تسعينيات القرن الماضي، وارتبطت بمثقفين اثنين: الأول عربي وهو المهدي المنجرة، والثاني غربي وهو صموئيل هنتغتون. كلا المشروعين يستند على فكرة انتقال منطلقات الحروب من حيِّز المصالح المادية إلى حيِّز أوسع وأشمل وهو حيِّز المصالح الحضارية الكبرى. فلم تعد المصلحة الاقتصادية وحدها محركاً فاعلاً للمعتدين، وإنما الخصام الحضاري هو من يقوم بذلك.



أخذ صموئيل هنتغتون فكرة صدام الحضارات من المهدي المنجرة، ثم طورّها بصورة مختلفة

لكن قبل أن نشرح فكرة صدام الحضارات نحتاج أن نجيب على السؤال التالي: من صاحب فكرة صدام الحضارات؟ هل هو المنجرة أم هنتنغتون؟ لا يحتاج إثبات ملكية فكرة صراع الحضارات إلى كثيرِ عناء، فقد أقرَّ صموئيل هنتنغتون في الفصل العاشر من كتابه صدام الحضارات أنَّه أخذ أصل الفكرة من المهدي المنجرة،[1] وقد نقل المنجرة نفسه هذا الاعتراف في كتابه «قيمة القيَم»، حيث قال: «يعترف هنتغتون أنني كنت أول من استعمل عبارة الحرب الحضارية».[2]

إذن هناك رؤية واضحة بأن البروفيسور المهدي المنجرة هو صاحب فكرة صدام الحضارات، لكن المشتهر في الوسط العلمي أنَّ صاحب هذه النظرية هو صموئيل هنتغتون، ولم أرَ باحثًا في العلاقات الدولية يعزو النظرية إلى مصدرها الأساس، وهو الدكتور المهدي المنجرة. ومهما يكن من أمر، فقد نجد تبريرًا لذلك في أنَّ صموئيل هنتغتون كان أكثر إسهابًا وتفصيلاً في توضيح نظرية صدام الحضارات،[3] ولذلك سوف نتعرّض لما قاله صموئيل هنتغتون أولًا ثم سوف نذكر الجوامع المشتركة بين الأستاذين.

---

(١) هنتنغتون، **صدام الحضارات**، مرجع سابق، ص٤٢٥.

(٢) المنجرة، المهدي، **قيمة القيم** (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٤، ٢٠٠٨) ص١٢.

(٣) وهذا الأمر معتاد في عالم الأفكار، فعلى سبيل المثال نجد أن أرسطوطاليس هو من بدأ الحديث حول نظرية الفصل بين السلطات، لكن هذه النظرية لا تُنسب إليه، وإنما تُنسب إلى الفرنسي مونتسكيو، مع أن مونتسكيو جاء بعد أرسطوطاليس بأكثر من ألفي عام، والسبب في ذلك أنَّ مونتسكيو شرح النظرية وفصّلها أكثر مما فعل أرسطوطاليس. وكذلك نجد أنَّ شهاب الدين القرافي تحدث عن نظريّة "الاستقراء المعنوي" لكنه لم يشتهر بها، وإنّما الذي اشتهر بها هو أبو إسحاق الشاطبي، مع أن الشاطبي جاء بعد القرافي بنحو مئة عام، وذلك لأنَّ الشاطبي بسط النظرية وشرحها أكثر بكثير مما فعل القرافي.



يرى صموئيل هنتنغتون أن هناك ثماني حضارات كبرى في العصر الحديث: الصينية، اليابانية، الهندية، الإسلامية، الأرثوذكسية، الغربية، الأمريكية اللاتينية، الأفريقية.[١] ويرى أنَّ هناك حضارتين فقط من هذه الحضارات لديهما القدرة على مواجهة الغرب، وهما الحضارة الإسلامية والحضارة الصينية الكونفوشوسية.

كما يرى صموئيل أن ثمة ركيزتين أساسيتين تشكلان إطاراً لنظرية صدام الحضارات أو ما يسميه «النظرية الحضارتية»[٢] (Civilizational Paradigm):

▫ **الركيزة الأولى**: أنَّ هذه النظرية تأتي إلى مجال العلاقات الدولية باعتبارها بديلاً لنظرية الواقعية (Realism) التي كانت مسيطرة على الفكر السياسي الدولي شطراً من القرن العشرين.[٣] والنظرية الواقعية هي إحدى نظريات العلاقات الدولية، وهي تعني -بحسب شرح المؤلف نفسه- أنَّ الدول هي «الوحدات الفاعلة الوحيدة أولياً وفعلياً في الشؤون الدولية، وأن العلاقات بين الدول هي علاقات فوضى، وبالتالي فلكي تؤمن حياتها وأمنها فإن الدول تحاول بثبات أن تضاعف من قوتها». وينتج عملياً من هذه النظرية أنه «إذا رأت دولةٌ ما دولةً أخرى تزيد من قوتها، والتي من خلالها تصبح خطرًا متوقعًا، فإنها تحاول أن تحمي أمنها بزيادة قوتها و/ أو أن تتحالف مع دول أخرى».[٤]

وهذه العملية الاستبدالية -بين النظريتين الحضارية والواقعية- تأتي في سياقها المنطقي الطبيعي الناشئ من تحوّل ركائز الصراع من دول إلى حضارات،[٥] حيث إنَّه من المهم أن نتذكر أن صموئيل هنتغنتون كتب هذا الكتاب بعد تهاوي الاتحاد السوفيتي وبروز عالم جديد تتفرَّد بسيادته الولاياتُ المتحدة الأمريكية.

---

(١) هنتنغتون، **صدام الحضارات**، مرجع سابق، ص١١٢.

(٢) مترجم كتاب "صدام الحضارات" الدكتور محمد محمود خلف ترجمها إلى "النظرية الحضاراتية" وهذه التسمية غير صحيحة لغويًا؛ لأن النسبة في اللغة تكون للفرد وليس للجمع.

(٣) تحديداً فترة الحرب الباردة بين قطبي الكرة الأرضية الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، التي استمرت ما يقارب أربعين عاماً.

(٤) هنتنغتون، صموئيل، **صدام الحضارات** مرجع سابق، ص٨٨

(٥) هي عملية استبدالية من حيث الصورة العامة، لكن إذا تأمّلنا المسألة فمن الممكن أن نقول إن النظرية الحضارية ليست بديلة عن النظرية الواقعية بقدر ما هي امتداد لها، حيث إن النظرية الواقعية تقتضي أن الدول تبحث عن مصالحها المادية فحسب، وأما النظرية الحضارية فهي تقتضي أن الدول تبحث عن مصالحها الحضارية، وتتعاون مع الدول التي تشترك معها حضارياً أكثر من الدول التي تشترك معها في مصالح مادية؛ لأن ما بعد الحرب الباردة أصبحت التهديدات تأتي من الدول التي لا تشترك معها حضارياً، ومن ثم توازن القوى لا يكون بخلق توزان قوى مع الدول التي تتقاسم المصالح، وإنما مع الدول التي تتقاسم الحضارة الواحدة.

◘ **الركيزة الثانية:** أنَّها مطلقة من حيث المكان ونسبية من حيث الزمان. أي أنَّه يمكن ممارستها وتطبيقها على كل نتاج يفرزه الواقع المعاصر، لكن ليس ثمة ما يضمن استمرارية فعالية هذه النظرية في المراحل الزمنية المقبلة؛ لأن الأمر مرتبط بوجود المقدمات التي تؤدي بالضرورة الاجتماعية إلى وجود النتائج، تماماً كما كانت هناك معطيات معينة خلال فترة الحرب الباردة أدت إلى نتائج معينة، وعندما تخلَّفت تلك المقدمات تخلَّفت نتائجها تبعاً لتخلُّفها.

وقد أوضح صموئيل نسبية النظرية حيث قال: «النظرية الحضارية تقدم لنا خريطة مبسطة نسبياً ولكنها ليست مفرطة في التبسيط لغرض فهم ما يدور في العالم مع انتهاء القرن العشرين، ومع ذلك فليس هناك إطار نظري صالح إلى الأبد». ثم قال استشهاداً: «فنموذج الحرب الباردة في السياسة الدولية كان ذا فائدة ومناسباً لمدة أربعين سنة، ولكن صار بالياً في نهاية الثمانينات، وعند نقطة معينة فإنَّ نظرية التفسير الحضاري سوف تواجه ذات المصير.»(١)

✹ الجوامع المشتركة

هناك عدة جوامع مشتركة بين ما طرحه المهدي المنجرة وصموئيل هنتنغتون حول نظرية صدام الحضارات، حيث يمكننا أن نجد بينهما الجوامع المشتركة التالية:

◘ **الجامع الأول:** أهم جامع مشترك بين المنجرة وهنتنغتون أنَّ كليهما يتحدثان عن تحوّل جوهري في مبرّرات الحروب، حيث كانت مبرّرات الحروب سابقاً مبررات مصلحية مادية بحتة، كأن تكون هناك مصلحة سياسية أو اقتصادية أو عسكرية، أما اليوم فقد أصبحت المصالح الحضارية هي التي تخلق الحروبَ وتدقُّ طبولها.

يقول المنجرة مبيناً نشأة الحرب الحضارية: «حربُ الخليج أكثر من حرب صليبية، أنا في اعتقادي ومنذ بداية ١٧ يناير دخلنا في أوّل حربٍ عالمية حقيقية، وهي ستدوم على الأقل ١٥ أو ٢٥ سنة؛ لأن أهدافها الحقيقية ليست عسكرية أو سياسية أو اقتصادية بل هي حضارية؛ لأن تحديات القرن ٢١ ستكون كلها حضارية».(٢)

ويقول معززاً الغاية الحضارية للحروب المعاصرة: «الهدف الآن هو تحطيم ذاكرة حضارية، فحصيلة ٦٠٠٠ سنة التي ذكرها روكار، منذ بداية الكتابة والحضارة السومرية، وكل الحضارات السابقة، حتى الحضارة الإسلامية مجموعة في متحف كانت لي علاقة به لما كنت في اليونسكو، وأشرفت على بنائه وتنظيمه، مجمع ٦٠٠٠ سنة من هذه الحضارة قد تحطم، والمقصود الآن هو أنَّ الهيمنة الغربية في الميدان الحضاري هو تحطيم هذه الذاكرة العالمية الحقيقية».(٣)

---

(١) هنتنغتون، **صدام الحضارات**، مرجع سابق، ص٩٤

(٢) المنجرة، **الحرب الحضارية الأولى**، ص١٠٨.

(٣) المرجع السابق، ص ١٦٦



إذن أسباب حرب الخليج وما بعدها بالنسبة للمنجرة هي أسباب حضارية، وحرب العراق لم تكن إلا نقطة البداية، فإذا «ما تم تحطيم العراق فإنهم سيمرُّون إلى إيران ثم يواصلون طريقهم لمحاربة اليابان وأمريكا اللاتينية»[1] فهو يرى هنا أن كل العالم الثالث ستناله أيدي الحضارة الغربية ليس فقط ثقافياً، بل حتى عسكرياً.

وفيما يتعلق بتدمير إرث العراق الحضاري، فقد كتب الدكتور خالد الناشف كتاباً متعلقاً بهذه القضية فقط، وهو «تدمير التراث الحضاري العراقي، فصول الكارثة»، حيث ذكر فيه أن القوات الأمريكية استعملت «مواداً حارقة خاصة استخدمت في حرق المكتبات العراقية، لم تحرق الكتب فحسب، بل صهرت الرفوف والمكاتب وخلخلت الإسمنت».[2]

◘ **الجامع الثاني**: أنَّ هناك اشتراكاً نسبياً بين المنجرة وصموئيل في تحديد المؤشرات والأسباب التي أدت إلى وجود ظاهرة الحرب الحضارية، فالبنسبة لصموئيل هنتنغتون، مؤشرات الحرب الحضارية ومحفزَّاتها خمسة:

- سقوط الاتحاد السوفيتي ويوغسلافيا.
- صعود الأصولية الدينية في مناطق العالم.
- الصراع داخل روسيا وتركيا والمكسيك حول الهوية.
- مقاومة الدول الإسلامية للضغط العربي على العراق وليبيا.
- الجهود التي تبذلها الدول الإسلامية والكونفوشيسية[3] للحصول على الأسلحة النووية.[4]

أما بالنسبة للمنجرة فقد تشابهت مؤشراته جزئياً مع صموئيل، حيث يقرِّر ما يلي: «الغرب خائف ويعيش رعباً عميقاً بسبب أخطار يترقبها من الجنوب خلال السنوات المقبلة» ثم يحدد تلك الأخطار بأنها:

١- «خطر الانفجار الديموغرافي الناتج عن تزايد وتيرة النمو السكاني الشبابي داخل دول الجنوب مقابل تراجع مهول في الهرم السكاني لدول الشمال».

---

(١) المرجع السابق، ص ١١١
(٢) الناشف، د. خالد، **تدمير التراث الحضاري العراقي فصول الكارثة** (بيروت، دار الحمراء مركز الدراسات، ط١، ٢٠٠٤) ص ١١.
(٣) الكونفوشيسية Confucianism هي النظام الفلسفي الصيني، وهي المذهب الرسمي في الصين الشعبية.
(٤) هنتنغتون، **صدام الحضارات**، مرجع سابق، ص٩٥.

٢- خطر التغيير الديمقراطي الذي من شأنه تحديد كل مواقع الهيمنة والاستغلال الغربي لدول الجنوب.

٣- خطر حضاري من شأنه الحد من هيمنة الحضارة الغربية -خاصة الإسلام- بالنسبة للمجتمع الإسلامي العربي».(١)

ثم بعد عشرين سنة من ذكره هذا الكلام، رأى المنجرة في كتابه الآخر «قيمة القيم» أنَّ هذه الأسباب تبدلت وتغيرت، فأصبحت على النحو الآتي:

- أولاً: الخوف من التفجر الديمغرافي تحوَّل إلى الخوف من الهجرة والمهاجرين.
- ثانياً: الخوف من اليابان حلَّ محله الخوف من الصين.
- ثالثاً: الخوف على الإسلام لم يتبدل، وإنما زاد واستفحل.

يقول المنجرة ملخصاً ما مضى: « للغرب -في بداية الثمانينيات- ثلاثة هواجس أساسية هي: الديمغرافية، الإسلام واليابان. أما هواجس وانشغالات وهموم اليوم، فهي التخوف من الهجرة الذي عوَّض هاجس الديمغرافية، والخوف من الصين الشعبية التي عوَّضت اليابان، فيما زاد هاجس الإسلام في شكل خوف من الإسلام بوجه مكشوف، يُقرن بصفة تلقائية الإسلامُ بالإرهاب بواسطة الإرهاب اللغوي والإعلامي».(٢)

◘ **الجامع الثالث:** أنَّ الاثنين يتفقان جزئياً على الهويَّة الدينية للحضارة الغربية المهيمنة، حيث يرى صموئيل أنَّ الهوية الدينية للحضارة الغربية هي المسيحية، بينما يرى المنجرة أنها مسيحيةٌ يهودية، حيث ذكر أنَّ هدف الحضارة الغربية هو: « تحقيق الهيمنة اللغوية والحضارية والفكرية للحضارة المسيحية اليهودية ضد كل الثقافات الأخرى».(٣)

هذه الجوامع المشتركة بين المهدي المنجرة وصموئيل هنتنغتون، وسوف نتحدث الآن عن الفروقات والاختلافات بين المشروعين.

---

(١) المنجرة، **الحرب الحضارية الأولى**، مرجع سابق، ص ٧٨.
(٢) المنجرة، المهدي، **قيمة القيم**، مرجع سابق، ص ٩
(٣) المنجرة، **الحرب الحضارية الأولى**، مرجع سابق، ص ٧٩



الفروق بين المنجرة وهنتغتون

الفرق الأول: يرى المهدي المنجرة أنَّ هناك حضارتين، وهما الغرب والعالم الثالث، أو الشمال والجنوب بحسب تعبيره. فالصين وجنوب أفريقيا والسعودية وأمريكا اللاتينية واليابان[1] كل هذه تعدُّ في نظرِه حضارةً أو ثقافةً تقابلُ الحضارة الغربية. فعلى هذا ليس **للجنوب**[2] خاصية دينية أو عرقية أو لغوية تميزه أو تعد جامعاً مشتركاً بين أجزائه، وإنما الجامع المشترك الوحيد أنَّها تقابل الحضارة الغربية.

بينما الوضع مختلف عند صموئيل، فهو وإن كان يرى أنَّ العالم ينقسم إلى قسمين: عالم الغرب وعالم ما سوى الغرب، فإنه يرى أنَّ عالم ما سوى الغرب يحتوي على سبع حضارات رئيسة.

الفرق الثاني: يرى صموئيل هنتنغتون أنَّ الحرب الحضارية بدأت تحديداً بعد سقوط إمبراطورية الاتحاد السوفيتي -٢٦ ديسمبر ١٩٩١- وابتداء القطبية الأحادية من خلال تفرُّد الولايات المتحدة الأمريكية بالهيمنة على العالم.

أما المنجرة فهو يشترك مع صموئيل في تحديد المرحلة الزمنية التي ابتدأ فيها الصراع الحضاري، وهي بداية التسعينيات، لكنه يختلف معه في تحديد الحدث الذي خلق بداية الحرب الحضارية، فالبنسبة لصموئيل فإنَّ بداية الحرب الحضارية بدأت بسقوط الاتحاد السوفيتي، أما بالنسبة لمهدي المنجرة فالحرب الحضارية -من حيث التمهيد والاستعداد- قد بدأت في منتصف الثمانينيات، حيث «بدأت الحملة ضد الإسلام بعد أن كشف معهد بالفاتيكان متخصص في دراسات الإسلام أنَّ عدد الكاثولوكيين انخفض لأول مرة في التاريخ أقل من عدد المسلمين (٨٥٠ مليون مسيحي مقابل ٨٦٥ مليون مسلم) مع احتمال في اتساع الهوة بانخفاض نسبة المسيحيين وارتفاع نسبة المسلمين».[3]

هذا من حيث بداية الفكرة وانطلاقتها باعتبارها حملةً عامة، أما من حيث النقطة الزمنية التي تحولت فيها هذه الحملة إلى حرب حقيقية فهي حرب الخليج الثانية عام ١٩٩٠، يقول المنجرة في ذلك: « إنَّ حرب الخليج أكثر من حرب صليبية، أنا في اعتقادي ومنذ بداية ١٧ يناير دخلنا في أوَّل حربٍ عالمية حقيقية، وهي ستدوم على الأقل ١٥ أو ٢٥ سنة؛

(١) مع التنبيه إلى أنَّ اليابان لا تعد من دول العالم الثالث، بل هي في طليعة مساعدي العالم الثالث ومعينيه، يُراجع: بوطالب، عبد الهادي، **النظم السياسية في العالم الثالث** (الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، ١٩٩٣م) ص٢٥

(٢) أما الشمال أو الغرب فقد حدد المنجرة هويته الحضارية بالمسيحية اليهودية كما سيأتي.

(٣) المنجرة، **الحرب الحضارية الأولى**، مرجع سابق، ص ٧٩

لأن أهدافها الحقيقية ليست عسكرية أو سياسية أو اقتصادية بل هي حضارية؛ لأن تحديات القرن ٢١ ستكون كلها حضارية».[١]

¤ **الفرق الثالث**: لم يتحدث صموئيل هنتنغتون عن إمكانية وجود تعايش بين هذه الحضارات المتعارضة، أما المهدي المنجرة فقد كان واضحاً في هذه المسألة، حيث يقول: «الغرب غير مستعد للتعايش مع حضارات أو ثقافات غير الثقافة الغربية وما يهمه هو مصالحه التي يضطر كما يحدث اليوم لحمايتها ولو بالتدمير أو العنف».[٢] ويقول معززاً ما مضى: «ليست هناك أي محاولة من طرفهم أن يتفهموا الطرف الآخر، لأن أملهم في أن الآخر هو الذي سيكون جزءاً منهم، **فلا فائدة في مفاهمة الآخر**».[٣]

إذن المنجرة لا يرى أنَّ هناك فائدةً في التحاور مع هذه الحضارة المهيمنة التي تريد ترسيخ الهيمنة المسيحية واليهودية على العالم الثالث، وهذه الرؤية تشكّلُ المنطلق الرئيس الذي أسَّس لنظرية الحرب الحضارية عند المهدي المنجرة.

¤ **الفرق الرابع**: لم يتعرَّض صموئيل هنتنغتون إلى السقف الزمني لهذه الحرب الحضارية، أما المهدي المنجرة فكانت لديه رؤية تشير إلى استمرارية هذه الحرب لمدة تتراوح من خمس عشرة سنة إلى خمس وعشرين سنة.[٤]

¤ **الفرق الخامس**: من ناحية الكاتب نفسه، فقد كان صموئيل هنتنغتون يتحدث عن الهمينة الحضارية الغربية باعتباره واصفاً وصفَ محايد على الأقل في الظاهر، أما المهدي المنجرة فقد كان يتحدث باعتباره منظراً للعالم الثالث وباعتباره جزءاً منه ناصرًا له، ولذلك لم يفتأ المنجرة محرِّضاً العالم الثالث على التعجيل بخلق الاستقلال الحضاري، وعدم الاكتفاء بوجود الاستقلالين السياسي والاقتصادي: حيث يقول: «إن الاستقلال السياسي يتم بشيء بسيط، بالتوقيع على وثيقة، كما أن الاستقلال الاقتصادي بسيط هو الآخر، ففي ظرف سنتين أو ثلاثة يمكن أن تُصدر قانوناً للتأمين بحيث يتم إخراج الأجنبي، لكن كيف نحصل على الاستقلال الحضاري والثقافي؟».[٥]

هذه خمسة فروق جوهرية بين ما قرره المهدي المنجرة وصموئيل هنتنغتون.

---

(١) المرجع السابق، ١٠٨

(٢) المرجع السابق، ص،١٢١

(٣) المرجع السابق، ص١١٧

(٤) المرجع السابق، ص ١٠٨

(٥) المرجع السابق، ص١١٣.



وجهة نظر حول المشروعين

أولا: كلا الكتابين تمَّ الفراغ منهما في بداية التسعينيات، وتالياً هما قديمان نسبياً، وقد استجدت أحداث جسيمة من شأنها أن تعيد تشكيل الوعي السياسي والفكري، ومن شأنها كذلك أن تعيد تشكيل محفزّات الصراع بين الدول، وتالياً عناصر التحليل السياسي.

ثانيا: كتاب «الحرب الحضارية» للدكتور المنجرة ليس سردًا موضوعيًا لقضية واحدة من خلال ترتيب منهجي، وإنما هو عبارة عن مقالات متعددة أتت في سياقات مختلفة مكانياً وزمانياً، فبعضها نشر في الثمانينيات وبعضها في التسعينيات، وبعضها كان عبارة عن مقالات في صحف، وأخرى عبارة عن مقابلات تلفزيونية أو إذاعية. كان الكتاب سيكون أفضل بكثير لو كُتب بمنهجية علمية متسلسلة كما هو الحال مع كتاب «صدام الحضارات» لصموئيل هنتنغتون. ومع أن الطبعة التي بين يدي هي الطبعة الثامنة، فإنَّ شيئاً من التجديد لم يتم، لا سيما أنَّ المنجرة نفسه قد تغيرت بعض أفكاره أو تطوّرت كما نرى ذلك بوضوح في كتبه المتأخرة، وقد مرَّ بنا مثال على ذلك وهو قضية مؤشرات الحرب الحضارية.

ثالثا: وقع صموئيل هنتنغتون في خلل منهجي، فهو قد جعل الدين معياراً أساسيًا لتمييز الحضارات، حيث يقول: « الديانة خاصية أساسية في التعريف بالحضارات».[1] لكنه لم يطبق ذلك إلا على الحضارة الإسلامية، وأما بقية الحضارات فكان يميّزها بالعنصر الجغرافي أو العرقي.

رابعا: على الرغم من اهتمام صموئيل هنتنغتون كثيراً بالدين باعتباره عاملاً أساسيًا في الحضارات فإنه أهمل الحديث تمامًا عن الديانة اليهودية، ولم يذكر أي شيء عنها في سياق صدام الحضارات.

خامسا: بالغ المنجرة كثيرًا في تضخيم قضية حرب الحضارات، وبالغ أكثر في تضخيم دور حكومة صدام حسين ودورها في نهضة العراق العلمية والحضارية. كما كان تحليله لحرب الخليج تحليلاً سطحيًا، وربما له العذر في ذلك بسبب وقوف نخبة كبيرة من القادة والمثقفين مع قادة التحالف آنذاك، وكذلك لأن الأحداث كانت في بداياتها، فتحليل أحداث حرب الخليج الثانية تحليلاً سياسيًا هو اليوم أسهل بكثير منه في فترة اشتعال الحرب؛ لأنه قد ظهرت معطيات ودلائل لم تكن موجودة في ذلك الوقت.

(١) هنتنغتون، **صدام الحضارات**، مرجع سابق، ص١١٤.

المبحث الثاني: نهاية التاريخ

التفرّد الغربي عمومًا والأمريكي خصوصًا في زعامة العالم جعل الكاتب الأمريكي المشهور فوكوياما يكتب كتاباً أثار جدلاً كبيرًا في أوساط المفكرين، وهو كتاب «نهاية التاريخ». فكرةُ هذا الكتاب ترتكز على أن النظام الديمقراطي -وتحديدًا الديمقراطيّة الليبرالية- هو آخر إبداع سياسي يمكن أن ينجبه العقلُ البشري، ولن يكون بعد هذا النظام نظام آخر يحظى بشرعيةٍ توازي شرعية النظام الديمقراطي. كما أن النظام الرأسمالي هو الآخر يعدُّ النظام الأمثل والأخير في هذا العالم. يقول فوكوياما «الديمقراطية الليبرالية قد تشكّل نقطة النهاية في التطوّر الإيدلوجي للإنسانية» وأنها كذلك «الصورة النهائية لنظام الحكم البشري».(١)


فرنسيس فوكوياما مفكر أمريكي من أصل ياباني اشتهر بفكرة: نهاية التاريخ

إذن الديمقراطية الليبرالية -بحسب فوكوياما- هي نهاية إقدام العقول البشرية في الحقل الأيدلوجي، ولذلك «فإنه من غير المستطاع أن نجد ما هو أفضل من الديمقراطية الليبرالية».

وفيما يتعلّق بسلبيات الديمقراطية الليبرالية، فإنّ فوكوياما يعترف بوجود سلبيات ونواقص تعتري النظام الديمقراطي، لكنه يصرُّ على أن هذه العيوب ليست متعلقة بالديمقراطية من حيث هي مفهوم، بل هي متعلقة بالديمقراطية من حيث هي مصداق وممارسة عمليّة. بخلاف العيوب التي تعتري الأنظمة السياسية السابقة كالثيوقراطية والأرستقراطية، فعيوب هذه الأنظمة متعلقة بالأنظمة ذاتها، أي من حيث صورتها النظرية، أما الديمقراطية الليبرالية فعيوبها فقط في الجانب التطبيقي، أي أن الناس لا يحسنون أحيانًا تطبيق الديمقراطية، وفي ذلك يقول فوكوياما: «بينما شابت أشكال الحكم السابقة عيوب خطيرة وانتهاكات للعقل أدّت في النهاية إلى سقوطها، فإنّ الديمقراطية الليبرالية قد يمكن القول إنها خالية من مثل تلك التناقضات الأساسية الداخلية، وليس معنى ذلك أنَّ الديمقراطيات الراسخة كالولايات المتحدة لا تعرف الظلم أو المشكلات الاجتماعية الخطيرة، غير أن هذه المشاكل في ظنّي وليدة قصور في تطبيق المبدأين التوأم: الحرية والمساواة، ولا تتصل هذه المشاكل في المبدأين ذاتهما».(٢)

---

(١) فوكوياما، فرنسيس، **الإنسان الأخير وخاتم البشر**، ترجمة حسين أحمد (القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، ط١، ١٩٩٣) ص٧.

(٢) فوكوياما، **نهاية التاريخ وخاتم البشر**، مرجع سابق، ص٨.



وفوكوياما يرى أنَّه لم يأتِ بجديد في هذه النظرية، وإنما هو امتداد لمن سبقوه، فقد تحدّث الألماني **هيجل** عن نهاية التطوّر الأيدلوجي، حيث ذكر أنَّ العالم سينتهي أيدلوجيّاً إلى تبنّي الدولة الليبرالية، وكذلك تحدّث الألماني **كارل ماركس** عن نهاية العالم الكامنة في المجتمع الشيوعي.

إذن السؤال عن أيدلوجيّة تشكّل نهاية العالم ليس سؤالاً حديثًا، وإنما هو سؤال قديمٌ منذ أكثر من مئة وخمسين عاماً، وبذلك يكون فوكوياما مذكّرًا بهذا السؤال وليس منتجًا له.

ويرى فوكوياما أن تطوّر العالم سيتوقّف أيدلوجياً عند الديمقراطية الليبرالية لسببين:

◘ **السبب الأول**: اقتصادي، وهو يكمن في أنَّ الرأسمالية أحدثت رفاهية لدى المجتمعات التي تتبناها، «فالسوق المفتوحة قد انتشرت ونجحت في خلق مستويات من الرخاء المادي لم نعهدها من قبل».(١) وهذا ما سيجعل النظام الرأسمالي هو النظام الاقتصادي النهائي والأخير في الحياة البشرية، فسوف تبقى البشريّة ملتزمة بهذا النظام ولن تستطيع الإتيان بما هو أفضل منه.(٢)

◘ **السبب الثاني**: ما يتعلّق بالنظرة الدولية للديمقراطية، حيث أصبحت الديمقراطية تمثّل تقدمًا وتطورًا وحضارةً، وفي ذلك يقول مارك بلانتر: «الشرعيَّة العالمية للديمقراطية تجعلها أمراً يصبو إليه الناس في جميع أنحاء العالم». بل ذهب بعضهم إلى جعل الديمقراطية «رديفاً للحضارة»،(٣) أي أن الدولة التي تتبنى النظام الديمقراطي تكون دولةً حضاريةً، والدولة التي لا تتبنى النظام الديمقراطي تكون دولةً متخلّفة.

---

(١) المرجع السابق، ص١٠

(٢) ما يقوله فوكوياما عن ديمومة النظام الرأسمالي يأتي على النقيض تماماً مما قاله العالم الأمريكي الاقتصادي الشهير جوزيف شومبيتر قبل أكثر من ستين عاماً، حيث ذكر أنَّ الرأسمالية لا يمكن أن تحيا وتستمر، بل ستؤول إلى الزوال والتلاشي، وستكون الاشتراكيّة هي الوريث الواضح لها. انظر: جوزيف شومبيتر، **الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية**، مرجع سابق، ص١٧٠.

(٣) كان هذا تعبير السياسي الجورجي غيا نوديا Ghia Nodia، وقد ذكر أن "أكبر انتصار للديمقراطية في العالم الحديث أنها أصبحت أمراً مألوفاً". يُراجع: بلانتر، **مقدمة هل الديمقراطية قابلة للتصدير**، ص٣٣.

هذه هي خلاصة نظرية نهاية التاريخ التي أتى بها فرنسيس فوكوياما، وهي نظريّة لم تلقَ قَبولا في أوساط المفكرين بما في ذلك المفكرون الغربيون، لا سيّما بعد ظهور علامات تهاوي نظام القطب الواحد، وتحوّل الولايات المتحدة -الراعي الرسمي للديمقراطية- من دولة مهيمنة إلى دولة عظمى تشاطرها العظمة العديد من الدول. يقول جياكومو كيوزا: «أصبح انهيار الولايات المتحدة من الموضوعات المتداولة، فهذه الدولة التي كانت تُمجّد منذ سنوات ليست ببعيدة باعتبارها بلداً ضخماً يتمتّع بقوة وجاذبية لا مثيل لهما، أصبحت الآن تواجه إمكانية تحلّلها».[١]

وممن انتقد نظرية نهاية التاريخ الفيلسوفُ النمساوي هانس كوكلر، حيث وصف تحليلات فوكوياما بأنها «تحليلات سطحية» وأنها «تلفيق غير مدروس فلسفيًا لغائية هيغل التاريخية».[٢]



(١) جاء ذلك في مقالة كتبها جياكومو كيوزا في المجلة الفصلية Political Scinces Quarterly، ونقله نعوم تشومسكي في كتابه "صناعة المستقبل" راجع: تشومسكي، نعوم، **صناعة المستقبل** (بيروت، شركة المطبوعات، ط، ٢٠١٣) ص ٢٦٥.
(٢) كوكلر، **أسباب تشنج العلاقة بين الغرب والمسلمين**، مرجع سابق، ص٤٦، ص٤٨.